النكبة في سوريا

***

من وادي العبودية القاتم الذي ندعوه « الارض» يتصاعد ضجيج هائل تتصل اطرافه بالسماء فترنو نجومها الى الاسفل مذعورة مضطربة ، لانها لم تسمع بمثله منذ سُقفت الارض بالسماء .

ذلك ضجيج المنتمين الى الانسانية وقد اشتبكوا في عراك هائل سيذكره التاريخ مسمياً اياه « حرباً عمرانية » . والمنخرطون فيه قد انقسموا قسمين ، قسم يعارك بعضهم بعضاً ليكون لهم النفوذ والاثرة وقسم آخر يعارك الجوع والهم واليأس .

من خلال هذه الجلبة تسمع الدهور وقع خطى ملايين من الارجل الراحلة الى الابدية عَلَى طريق الفناء ويتصل باذانها من الارض هتاف الاسى وانين النكبة ، ونحيب الحيرة ، وصدى اليأس الصامت

هذه بعض نتائج الحرب الضروس التي تدرر رحاها الان طاحنة بويلاتها ما كان في الارض من بشاشة وهناء وامن . ولم تكتفِ الحرب بان تعمم ويلاتها بلاد العناصر المتطاحنة بل تطرقت الى بلاد لم يحرك اهلها ساكناً ، وانما حكم عليها موقعها الجغرافي ان تعرض جسمها لسهام النكبة وتقاسي من البؤس ما لا قبل لها به ولا طاقة عَلَى احتماله . فداستها سنابك الويل فسقطت

الى الحضيض دامية ، مدنفة ، تستغيث باهل المروءة والانسانية ·

من هذه الاقطار التي ضحيت عَلَى مذبح الحرب بلاد البلجيك وارمينيا ، وقصتها في النكبة مشهورة · ولكن هنالك قطراً ثالثاً يدوي صوت استغاثته في آذاننا ، وقد انشب البوءس مخالبه في جسمه ، واصبح احق البلاد المنكوبة بالاسعاف · وهذا القطر البائس هو سوريا ·

سوريا — بلاد الانبياء ، مهبط الشرائع والاديان — القطر الذي شرفه الوحي — البلاد التي كانت تدر لبناً وعسلاً ، وتقيت سواها بما فاض من محصولاتها اصبحت الان مهبط الشقاء ومهد الويل ومسرح الهول · فقد تفشت فيها المجاعة وعمت الفاقة وسرى الوباء ومشى موكب الموت يتقدمه الخوف ، فاشتد الضيق بالاهلين ونفد القوت ، فباتوا ينتظرون الهلاك في منازلهم الخالية بعد ان أقفرت حقولهم ، وسدت طرق الفرج في وجههم ، وانقطعت عنهم سبل المواصلات من الداخل والخارج

نكبات سوريا التاريخية

وليست هذه النكبة باول ما طرق سوريا من طوارق الحدثان ، فقد عانت هذه البلاد من الشقاء في تاريخها ما لم تقاسه بلاد أخرى · وما اكثر الويلات في البلاد الذي يعرضها موقعها لاطماع الفاتحين ويجعلها طريقاً للامم يمر فيها كل مكتسح عات

أول ما يذكره التاريخ من نكبات سوريا مجاعات واوبئة ذكرتها التوراة نوردها عَلَى سبيل الفائدة ·

في ايام ابرهيم حدث جوع في الارض اضطره الى مغادرتها الى مصر (سفر التكوين ص ١٢ ع ١٠) وتلاه جوع آخر بعد برهة على ايام ابنه اسحق ثم في اواخر ايام يعقوب حدثت المجاعة الشهيرة التي عمت الارض سبع سنوات. وبسببها انتقل الاسرائيليون من فلسطين الى مصر انتجاعاً للقوت . وكان يوسف الصديق اذ ذاك قيماً على اهراء فرعون التي احتاط لاملائها بعد ان رأى فرعون في حلمه المشهور سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف . ثم حدث جوع شديد بعد صعود الاسرائيليين من مصر واكتساحهم فلسطين على ايام حكم القضاة وظل عشر سنوات (سفر راعوث) . ثم تلته مجاعة في ايام الملك داود ظلت ثلاث سنوات (صموئيل ص ٢١ عد ١) وقد جاء ايضاً في التوراة ان الله ساط على بني اسرائيل في ايام الملك داود بن يسى وباء لم يطل غير ثلاثة ايام ، فمات به سبعون الفاً في نهار واحد . وعقب ذلك بعد مرور زمن جوع عم البلاد في ايام ملك اسرائيل آخاب دام ثلاث سنوات لانحباس المطر . وهو الجوع الذي اضطر النبي ايليا التشبي لسببه ان يذهب الى صرفة التي لصيدون فصادف ارملة لها ملء كف من الدقيق وقليل من الزيت ، وهي تفتش عن عودين لتعمل قرصاً لها ولابنها ليأكلا ويموتا ، فانقذهما بعجيبة ذكرتها التوراة . وحدث بعد ذلك جوع تنبأ عنه اليشع تلميذ ايليا دام سبع سنوات .

وتتابعت بعد ذلك في اوقات متباينة من التاريخ مجاعات مثل هذه ذكرها المؤرخون ولم تكن تعم البلاد بل انحصرت في بعض اقسامها مسببة

عن قحط موقت ، او جروب اهلية ، او حصارات محلية . ولم يك ما يستحق الذكر حتى حدث عام بوءس شديد الوطأة في صدر التاريخ الاسلامي عقيب افتتاح العرب سوريا بقليل عَلَى ايام عمر بن الخطاب . وهو العام الثامن عشر للهجرة ويدعوه مؤرخو الاسلام « عام الرمادة » لان الريح كانت تسفي تراباً كالرمادة . واصاب الناس فيه مجاعة شديدة وجدب وقحط . واشتد الجوع في كل مكان وفي الحجاز خصوصاً حتى جعلت الوحش تأوي الى الانس ، وحتى صار الرجل يذبح الشاة فلا يجد فيها بعد سلخها سوى عظم أحمر . وزاد هول المجاعة طاعون شديد اشتدّت وطأته في سوريا وهو المعروف في التاريخ باسم « طاعون عمواس » فكاد الناس ان يتفانوا منه ومكث شهوراً فمات فيه من جيوش المسلمين المرابطين في سوريا ٢٥ الفاً . وفي جملتهم القائد الشهير ابوعبيدة بن الجراح الذي كان أمير البلاد

وفي السنة ٧٩ للهجرة اصاب سوريا طاعون شديد في خلافة عبد الملك بن مروان الاموي فكاد ان يفني اهلها . وبسببه لم تستطع الجيوش ان تتحرك لغزو الروم .

وفي السنة ٩٨ للهجرة عَلَى ايام سليمان بن عبد الملك الاموي حدثت زلازل كثيرة متتابعة سببت اضراراً جسيمة وأذى للناس ودامت ستة اشهر

وفي سنة ١٠٨ هـ . في خلافة هشام الاموي كان بسوريا طاعون شديد

وفي سنة ٢٤٢ للهجرة (٨٥٧ م) في خلافة المتوكل العباسي حدثت زلازل هائلة فهدمت المباني وهلك تحت الانقاض خلق كثير ورافقها خسف

واصوات منكرة ٠

وفي سنة ٢٤٥ هـ (٨٦٠ م) زلزل شمالي سوريا فسقط في انطاكية وحدها الف وخمسمائة دار وسقط من سورها نيف وتسعون برجاً وتقطع الجبل الاقرع فسقط قسم منه في البحر وغارت انهار برمتها فلم يعلم اين ذهبت ، وأصيبت اللاذقية اكثر من سواها فلم يسلم من اهلهـا الا اليسير وهلك اهل جبلة ٠

وفي سنة ٢٦٦ هـ (٨٨٠ م) عَلَى ايام المعتمد العباسي انتاب البلاد قحطٌ شديد فعمّ الغلاء سوريا وغيرها من الاقطار المجاورة

وفي سنة ٤٢٣ هـ (١٠٣٢ م) كان قحط عام وتبعه وباء عظيم فاصيبت سوريا وجاراتها العراق ومصر والموصل وامتد الويل الى خراسان فروي ان اربعين الف ميت دفنوا في مدينة اصبهان العجمية وحدها في بضعة ايام ولم تخلُ دار في الاقطار المذكورة من مصيبة ، لعموم المصائب وكثرة الموت

وفي عام ٤٢٥ هـ (١٠٣٤ م) انتابت الزلازل بلاد الشام فانهدم ثلث المنازل في اكثر البلدان وهلك خلق كثير تحت الردم ٠ وزاد في الطين بلة انتشار داء الخوانيق فمات به كثيرون حتى كانت الدار يُسد بابها لموت اهلها

وفي سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) كان وبآء وجوعٌ في سوريا

وفي سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) كانت زلزلة عظيمة خربت كثيراً من البلاد وسقط فيها سور طرابلس ٠

وفي سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) كان وبآء عظيم نجارف ٠ وكان الموت

كثيراً حتى بقي كثير من الغلات في الحقول ليس لها من يغسلها ·

وفي سنة ٤٧٩ و٤٨٤ و٤٨٧ هـ (١٠٨٦ و١٠٩١ و١٠٩٤ م) اعادت الزلازل الكرة عَلَى سوريا فهدمت فيها بلداناً كثيرة ففارق الناس مساكنهم الى الصحراء هرباً ومن لم يهرب هلك تحت الردم ·

وفي سنة ٥١٨ هـ (١١١٤ م) حدثت مجاعة سببتها انقطاع الامطار بقلت الاقوات وغلت الاسعار غلاءً فاحشاً · ودام ذلك سنة

وفي سنتي ٥٣٢ و٥٣٣ هـ (١١٣٧ و١١٣٨ م) حدثت زلازل عظيمة متوالية فخربت بلاداً جمة ولاسيما حلب ، فان اهلها فارقوا بيوتهم وخرجوا الى الصحراء · وعدوا ليلة واحدة جاءتهم الزلزلة فيها ثمانين مرة

وفي سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) كان بسوريا زلازل كثيرة قوية فدمرت بلاداً كثيرة وهلك فيها ما لا يحصى من البشر · وخربت بلداناً بالمرة منها حماه وحمص وشيزر وكفرطاب والمعرة وافامية وحصن الاكراد وعرقة واللاذقية وطرابلس وانطاكية · ومما يروى عن كثرة القتلى في هذه الزلزلة انه كان معلماً بمدينة حماه فارق مكتبه لمهمة عرضت له فجاءت الزلزلة فخربت المدينة وسقط المكتب عَلَى الصبيان جميعهم · قال المعلم ، فلم يأتِ احد يسأل عن صبي له في المكتب ·

وفي سنة ٥٦٥ هـ (١١٧٠ م) عادت الزلازل فنكبت سوريا وتتابعت بهول شديد لم يرَ الناس مثله وخربت مدينة حلب كلها ·

وفي سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٩ م) عمَّ القحط البلاد فحدث غلاء فاحش وجوع

شديد · وتعذرت الاقوات فأكل الناس الميتة وما شابهها ودام ذلك سنة ونيف ثم تبعه وبآء عام كثر فيه الموت · وكان مرض الناس واحداً وهو السرسام · فلم يكن من يدفن الموتى ·

وفي سنتي ٥٩٦ و٦٠٠ هـ (١٢٠٠ و١٢٠٤ م) عاودت الزلازل سوريا فأثرت في البلاد أثاراً قبيحة ولا سيما بدمشق وحمص وحماه ومدن الساحل

وفي سنة ١٤٠٠ م حدثت اعظم نكبة اجتاحت سوريا حتى هذه الايام وهي شبيهة بالنكبة الحالية من حيث تعدد أهوالها وشدة وطأتهـا · فقد اجتمعت فيها ويلات الحرب والقحط والجراد والجوع والوبآء · وابتدأت بقدوم تيمورلنك التتري وجيوشه الى البلاد فكان ذلك مقدمة البلاء لان هذا الاعرج الحديدي كان ذا قلب لا يعرف الشفقة فخرب المدن واحرق المعاهد العلمية والمساجد وأسر الوجهاء والادبآء ومشاهير رجال الصنـاعة فساقهم معه فخلت سوريا منهم · وامعنت جيوشه في البلاد قتلاً ونهبـاً وارتكبت الفظائع وقتلت الشيوخ والاطفال وسبت النساء · وقبل ان يرحل تيمورلنك عن سوريا لمقاتلة السلطان بايزيد التركي جآء الجراد فأتلف النبات والاشجار فحصلت مجاعة هائلة وجآء الوبآء ثالثة الاثافي فاجتمعت الضربات المريعة في وقت واحد ·

وفي سنة ١٥٠٣ م عَلَى ايام الملك قانصوه الغوري قبيل فتح السلطان سليم التركي سوريا جآء سيل عظيم دام ٢٧ يوماً فكانت منه مضار لا تحصى · وطغى نهر العاصي ويردى وانهر لبنان فاتلفت واهلكت وسببت للسكان

اضراراً فاحشة .

وفي سنة ١٥٧٩ م على ايام السلطان مراد حدث جوع سببه القحط وتبعه طاعون مات به كثيرون .

وحدثت في اوقات مختلفة نكبات طفيفة غير التي ذكرناها من زلازل واوبئة محلية وضيقات ناتجة عن حروب لم تخلُ منها سوريا جيلاً

هذا ملخص ما استطعنا ايراده من نكبات سوريا . واكثرها ناتج عن قحط او وباء ولكنها كلها اذا جمعت الى بعضها ليست لتذكر بازاء النكبة الهائلة المخيمة الان فوق تلك الربوع القديمة .

﴿ اسباب النكبة الحالية في سوريا ﴾

نستطيع ان نعزو النكبة الحاضرة في سوريا الى سبب واحد هو الحرب. ولكن بلاداً كثيرة اصيبت بهذه الحرب الزبون وذاقت بلاياها من موت وهلاك وتدمير ومع ذلك ترى تأثير النكبة فيها قليلاً يكاد لا يظهر ، وذلك لاستعدادها وتأهبها لمقاتلة الشدة ولتعاونها على مدافعة النكبة . اما سوريا فهي ، وان كانت حتى الان متنكبة عن ميادين القتال ، فقد ذاقت اشد البلايا وتجرّعت كأس النكبة دفعة واحدة فلم يماثلها في ذلك قطر من الاقطار للاسباب الآتية —

اولاً . لما زجت تركيا نفسها في غمار هذه الحرب لم تكن جيوشها مستكملة المعدات من حيث الاكسية والاقوات فحجزت السلطة العسكرية كل ما توصلت اليه في سوريا من الاقوات والاشياء اللازمة للجنود فلم

يبقَ في البلاد ما يكفي لحاجاتها ، فقلت سائر الاشياء الضرورية كمواد الوقود والحاصلات الزراعية والزيوت والمواشي والزاد والاقمشة ، وارتفعت اسعارها ارتفاعاً فاحشاً ·

ثانياً · ساقت الحكومة للخدمة في الجيش كل الصالحين للعمل من شبان وكهول ، ولم تترك في البلاد غير الشيوخ والاطفال والنساء ، فلم يبقَ ما يكفي لاستغلال الارض وتعاطي الصنائع · واصبحت العائلات خلواً ممن يعيلها · فاشتدت فاقتها ·

ثالثاً · انقطعت الواردات التي كانت تأتي من اوربا وغيرها ولم تكُ البلاد تستغني عنها · وقد سبب ذلك النطاق الذي ضربه الاحلاف حول سوريا بحراً · فقلّ البترول والسكر والاقمشة وما شاكل وعزّ على الاغنياء اقتناءها فكيف بالفقراء ·

رابعاً · اضطرّ كثير من الشبان الذين هم ركن عائلتهم الوحيد ان يفتدوا انفسهم من الجندية مراراً فكانوا يدفعون آخر بارة عندهم وربما رهنوا بيوتهم او استدانوا من المرابين ليتمكنوا من البقاء في بيوتهم لاعالة اهليهم فقلّ بذلك المال · واصبح الواحد منهم يهلك نفسه في العمل ليتمكن من امساك المرابي وسد حاجات العائلة الضرورية

خامساً · زحف الجراد على قسم كبير من البلاد وكانت المزروعات في الحقول فأتلفها وراح بآخر امل كان الاهلون يعللون انفسهم به

سادساً · تفشت الاوبئة المتعددة في جهات القطر كله فاضافت الى الجوع

والخوف شدة · وحبست الناس عن الاهتمام باعمالهم سابباً · وقفت حركة الاشغال في البلاد فانقطعت اسباب الرزق عن التاجر والعامل واصبح اكثر العمال بطالين وليس لهم مورد ينفقون منه على عيالهم ولا من يقرضهم في هذه الازمة الشديدة فزاد ذلك في الطين بلة

فهذه الاسباب وسواها من الامور السياسية اوسعت المجال للنكبة في ربوع سوريا فقاسى الناس المضض ولا سيما في الشتآء الماضي اذ بات اكثرهم بلا وقود ، ولا طعام سوى اردأ اصناف الدقيق فكان المنكوبون يموتون — بعضهم بالجوع ، وبعض بالحمى التيفوئيدية وبعض بالدوسنطاريا ، وغير ذلك من الاوبئة ، حتى قيل ان ثمانين الفاً ماتوا في جبل لبنان وحده

﴿ اخبار النكبة ﴾

وردت اخبار النكبة الى المهجر اولاً من مصر الى الجرائد السورية في نيويورك فلم يصدقها كثيرون وعدوها مبالغة مقصودة لمآرب سياسية · ولكن الامر ما عتم ان تثبت عقيب ورود رسائل خصوصية الى افراد من المهاجرين تنم عن وجود النكبة بصراحة رغم تحفظ المراقبين · وازداد الخبر وثوقاً عندما عاد الى نيويورك بعض المرسلين الاميركيين من سوريا ، فرووا ما شاهدوه بام عينهم مما لم يترك مجالاً للشك وزاد الخبر تأكيداً ما ترويه جرائد سوريا من وقت الى آخر بتحفظ كلي عن اخبار الوباء والجوع ، فيرى القارىء بين سطورها المختصرة اخباراً ضافية هائلة عن ويلات مريعة قد انغمس في غمارها الشعب السوري ففاقت نكبته كل نكبة

وقد آثرنا ان ننقل بعض ما نعتقد به الصحة من مرويات الجرائد في وصف النكبة · وفي ما ننقله اخبار تصور فظائع النكبة باجلى بيان وتوءثر حتى في الجلاميد ·

﴿ وصف شاهد عيان ﴾

جاء في جريدة « المقطم » تعريب رسالة ظهرت في جريدة التيمس لسيدة اميركية معروفة موثوق بكلامها وقد قدمت من سوريا موءخراً ، نقتبس منها ما يأتي —

سوريا تتضور جوعاً

ان سوريا تتضور جوعاً · وليس قولي هذا مجازاً ولكنه حقيقة لا مراء فيها فقد غادرناها منذ شهرين وكنا ستة اثنين من ارمينيا واربعة من سوريا· وخمسة اميركيون والسادس يوناني · فاجتزنا جميع بلدان اوربا المحاربة ورأينا فيها مناظر احب شيء الينا ان تمحى عن اذهاننا ولكن كل ما شاهدناه فيها لا يقاس في فظاعته بسوء الحال في تركيا الاسيوية · وان قلمي ليعجز عن وصف تأثير الحرب في تلك البلاد فأقتصر عَلَى بعض الامور الاجمالية مما وقع تحت نظري في العامين الماضيين ·

بدء تأثير الحرب

لم تكد تضطرم الحرب حتى حصرت الحكومة الفرنسوية الشواطىء حصراً بحرياً شديداً فانقطع اتصال سوريا بسواها واضطرت الى الاعتماد عَلَى مواردها · ولا يخفى ان محاصيل البلاد تكفي لاطعام اهلها واضعافهم·

ففي العام الاول لم تشعر البلاد بحاجة الى الطعام ولكن نقصتها البضائع والمصنوعات والاطعمة الاوروبية · نعم ان كثيرين عانوا مرارة الفاقة بسبب تعطل الاعمال ولكن الاموال الطائلة التي تبرعت بها جمعية الصليب الاحمر الاميركية مكنتنا من توزيع الدقيق عَلَى المحتاجين اسبوعياً وتشغيل عدد كبير من الرجال والنساء بلا انقطاع فكان الرجال ينظفون الشوارع ويرممون الطرق ويبرهنون بذلك للبلدية ما تستطيع القيام به من هذا القبيل والنساء يعملنَ في خياطة الثياب والتطريز والدنتلا (الارلند والكروشه) فانقضى الشتاء (شتاء ١٩١٥) بصعوبة ولكن من غير ان يبلغ الضيق حد اليأس وكنا ننتظر الفرج بحلول فصل الربيع ·

غزوة الجراد

ولكن الربيع بدلاً من ان يأتينا بالفرج جاءنا بالجراد · ان ذكرى الجراد منقوشة في قلبي فلا استطيع ان اذكره او اصف فتكه من غير ان يعتريني قرف شديد ·

لما جاء الجراد لم نعبأ به في اول الامر بل اخذنا نتأمله كما يتأمل المرء المنظر الجديد غير المألوف ورأينا الناس حولنا يقصدون الحقول والبساتين وهم يقرعون الصفائح ويصيحون ليخيفوا الجراد ويمنعوه من النزول الى الارض ورعي ما فيها وكانت ارجاله خفيفة في اول الامر في كل قدم مربعة نحو ٢٠ جرادة وهو في طبقتين ·

وفي الصباح التالي خرج الجراد من مبيته قبلنا وصرنا نرى ارجاله كأنها

قطع مرصوصة رصاً وقد أكلت اغصان الشجر في الجنائن وزاعم الازهار وظلت الحال عَلَى هذا المنوال اسبوعاً ثم استقر الجراد عَلَى الرمال الواقعة بين شاطىء البحر واسناد الجبل الخصبة فغطى تلك البقاع وكساها ثوباً اسود ضارباً الى الصفرة · وهناك باض الجراد ومات ·

الهمة واليأس

فأدركنا الان ان الضربة القادمة ستكون شراً من الاولى واخرجت جمعية الصليب الاحمر مئات من الرجال والصبيان للبحث عن البيض واستخراجه فجاءوا بألوف الاكياس المملوءة به واتلفوها ولكن عَلَى غير جدوى فان البيض الباقي نقف بعد مدة وجيزة واخذ الدبى (صغار الجراد) يزحف كأنه جيوش من النمل الكبير الاسود واجتاز الرمال الى الحقول فلم يترك حقلاً الا بعد ما ألتهم كل خضراء فيه من عشب واعشاب وشجر حتى لحاء الاشجار وكان الجراد اذا دنا من قرية استقبله اهلها بمنتهى العزيمة لان الناس صمموا عَلَى افراغ منتهى الجهد في صون مزروعاتهم التي هي طعام عائلاتهم في فصل الشتاء فكانوا يقيمون السياجات من الشوك والعليق حول الحقول ولكن الجراد لم يعبأ بهذه الاحتياطات بل واصل الزحف وهو يلتهم الطري ويقضم اليابس فاذا لم تجد الجرادة امامها ما تأكله اكلت جارتها ·

ولما بلغ الدبى سياجات الشوك التي تقدم ذكرها تسلقها بعضه واخترقها الباقي فاجتمع الناس واضرموا النار في تلك السياجات فحرقت ملايين من الجراد ولكن هذه الملايين تلاها الوف الملايين وهي تزحف فوق النار والرماد

والجراد المحروق فاذا احترقت هي عقبها غيرها فاقام الناس سياجات جديدة واضرموا النار فيها واخيراً نفد الشوك والعليق ولم يفن الجراد

التهام المحاصيل

ولما انقضى شهر تموز كان الجراد قد بلغ اشده وصار يطير بعد ما أتلهم كل محصول الزيتون وكل محصول العنب في لبنان وجنوب سوريا واكل جانباً من محصول القمح في شمال سوريا ولكنه لم يلتهمه كله وفتك بالشر ولكن الرجاء ظل معقوداً بسلامة بعضه .

هذه كانت حالة البلاد لما حل فصل الخريف سنة ١٩١٥

المجاعة

ولما حل فصل الربيع اخذنا نسمع بحوادث الموت جوعاً فكان الناس ينطرحون في الشوارع وهم غائبون عن الصواب لشدة الجوع فينقلون الى المستشفيات وكنا نرى النساء والاولاد منطرحين في الطرق وقد اغمضوا عيونهم وعلت صفرة الموت وجوههم وصار الناس يبحثون في زبالة البيوت عن قشور البرتقال والعظام القديمة وغيرها من الفضلات ويأكلون ما يجدون منها بمنتهى الشراهة وكانت النساء تخرج الى الخلاء للبحث عن الاعشاب التي توءكل . وتوالت اخبار السوء في المدينة وروي ان كاهن احدى قرى الجبل نزل الى قرية اخرى طالباً من رجالها المعونة على دفن الموتى المنطرحين في شوارع قريته وبلغنا من مصدر جدير بالثقة انهم عثروا على اناس في جرود كسروان اكلوا لحم البشر ! »

بعض ما تروبه صحف البلاد

ويظهر ان هول النكبة تطرق الى قلوب محرري الصحف الوطنية في سوريا فألانها فلم يستطيعوا ان يسكتوا رغم تكتمهم الشديد امام ضغط المراقب الحربي فكتبوا ما يدرك منه القارىء بعد مطالعته مبلغ الهول

قالت جريدة المقتبس الدمشقية

« فهم من بعض الاطباء الرسميين في دمشق ان الحالة الصحية تحسنت الى درجة بتنا نؤمل معها زوال المرض (الوباء) عما قريب بحول الله تعالى»

وقال ايضاً — « مما يدخل الوهن الى القلوب وتأباه الطباع البشرية مرأى بعض المرضى ملقين في الشوارع العامة وعليه نلفت انظار عطوفة رئيس البلدية ورجال الصحة للتشديد عَلَى المهملين في هذا الامر

ذكرت هذا جريدة البلاغ البيروتية وعلقت عليه « نقلنا هذا الكلام لايقاظ رجال بلديتنا ايضاً الى الاهتمام بمثل هذه الامور فان بلدتنا لم تخل من مثل هؤلاء المرضى الملقين في السبيل »

وقالت الجريدة نفسها « الامراض كثيرة والوبآء منتشر في بعض البلاد وهو سريع السريان والعدوى فاذا لم نحتط له تمام التحوط فلا يلبث ان يفد علينا بخيله ورجله »

ونشرت احدى تلك الجرائد قصيدة لشاعر وطني يمتدح بها القائد العام في سوريا في شهر رمضان ويذكر فيها ما انتاب قومه من الجوع والشدة ويعرض بالمحتكرين والظالمين بشجاعة . وقد اخترنا منها نشر الابيات الآتية

تخيرت لي شهر الصيام ذريعة ... اليك فبعض الجوع فيه تعافي
تمنيت لو صح التفاهم بيننا ... فيغنيك عن هذا السماع عيافي
وتسمع دقات القلوب قريبة ... فتعلم شأن البائسين وشاني
وتشهد حوليك العفاة ، فمائت ... وحي كميت من ضنى وهوان
عيال قيام عند بابك خشع ... وانت أب يحتاجه الثقلان
ازل حيف ارباب الغنى واحتكارهم ... فهم شر خصم في بلادك ثان
وأدرك بنعماك البلاد فقد مشى ... بها الجوع والاملاق بصطحبان
اذا صمت فارحم من يصوم حياته ... وان تفطر اذكر عادماً لخوان
يبيت الدجى طاوٍ ويسحر طاوياً ... فيغتاله عند الضحى الحدثان

. . . .

فلم أرَ قبلاً مجرماً نال رفعةً ... واكليل فخر باهر اللمعان
ولا قاتلاً اخوانه عن طماعة ... يمجده التاريخ كل أوان
ولم أرَ كالسفاح يقرع صدره ... اذا قام يدعو ، وهو اكبر جان

وهذه الابيات بما تكنه وتنم عنه كافية لرواية كل حديث النكبة ، ولا سيما اذا علم القارىء انها صادرة عن قلم شاعر لا يستطيع ان يقول كل ما يعلمه وسيف النقمة مصلت فوق رأسه .

ولو شئنا ان نفيض في وصف النكبة فننشر بعض ما تذكره الرسائل الواردة على المهاجرين من ذويهم في الوطن وما تصرخ به من امر النكبة لضاقت بنا المجلدات . ولذلك نقتصر على القليل الذي اوردناه من اقوال

الجرائد ، ففيه بيان كاف

﴿ السعي في الخير ﴾

هاجت هذه الاخبار المحزنة اشجان المهاجرين السوريين النائين عن اهلهم البائسين . وصوّر شعورهم لهم قومهم يقتل شبانهم وكهولهم في ساحة الوغى ويموت شيوخهم ونساؤهم واطفالهم بالجوع والاوبئة السارية ، فلم يستطيعوا ان ينظروا الى مصاب اخوانهم ساكتين فهبوا لمساعدتهم لينقذوا البقية الباقية من الامة المنكوبة التي احتملت مصابها بالصبر . فألفوا في القاهرة ونيويورك لجنتين رئيسيتين تفرع منهما في اكثر بلدان المهاجر لجنات محلية لجمع الاحسان من السوريين وسواهم . واثارت أخبار النكبة حنان الاميركيين فألفوا في نيويورك لجنة لاغاثة السوريين والارمن فاظهرت من السعي الحميد ما يوجب عَلَى كل سوري صادق الوطنية ان يقر بفضل اميركا التي لعبت دور ملاك الرحمة في هذه الايام العصيبة فانقذته ، وأنارت بحنانها الاماكن التي سرت فيها غياهب البؤس .

﴿ منشور الرئيس ولسن ﴾

ومن المآثر الحميدة التي يسطرها التاريخ بالشكر والاعجاب ان وودرو ولسن رئيس الولايات المتحدة نظر بعين الشفقة الى مصائب الشعبين السوري والارمني فاصدر منشوراً يعين به يومين يبيح بهما جمع المال من الاميركيين في كل انحاء الولايات المتحدة لاغاثة السوريين والارمن المنكوبين وهذا تعريبه ملخصاً —

« لما كان قد بلغني قرار مجلس الشيوخ الصادر في ٧ تموز سنة ١٩١٦؛ ومفاده — تقرر بداعي ما يقاسيه الشعب السوري من العذابات ان يعين رئيس الولايات المتحدة يوماً تتحرّك فيه عواطف الاميركيين وتُعطى لهم فرصة لاظهار هذه العواطف والتبرع لاعانة الشعب السوري

ولما كان قد صدر قرار آخر من مجلس النواب في ١٨ تموز سنة ١٩١٦ وموءداه — بالنظر الى الشقآء والتعاسة والصعوبات التي يعانيها الشعب الارمني يُلتمس من رئيس الولايات المتحدة ان يعين يوماً يتسنى فيه للمواطنين من الولايات المتحدة اظهار عواطفهم بالتبرع لاعانة الارمن في البلاد المحاربة

ولمان كنت واثقاً بان شعب الولايات المتحدة سينهض لمساعدة هذه الشعوب المنكوبة بالخرب والجوع والامراض

فانا ، وودرو ولسن ، رئيس الولايات المتحدة ، بناءً عَلَى طلب مجلس الشيوخ وألتماس مجلس النواب اعين يوم السبت الواقع في ٢١ تشرين اول ويوم الاحد الواقع في ٢٢ منه سنة ١٩١٦ ليجود فيهما شعب الولايات المتحدة بتبرعاته اعانة للسوريين والارمن المنكوبين

صدر في مدينة واشنطون في هذا اليوم الواقع في ٣١ آب سنة ١٩١٦ مسيحية الموافقة لسنة ١٤١ من استقلال الولايات المتحدة »

(المختم)

الامضآء — وودرو ولسن الرئيس

واحتراماً لامر الرئيس وزّع مجمع الكنائس العام في اميركا اذاعة عَلَى

عنوم الكهنة الاميركيين يحثهم فيها عَلَى جمع المال في الكنائس لاعانة اخوانهم السوريين والارمن نهار الاحد ، أي اليوم الثاني من اليومين اللذين عينهما الرئيس .

﴿ يوم صوم ﴾

ونشرت اللجنة السورية النيويوركية اذاعة عامة عَلَى صفحات الجرائد العربية تدعو بها السوريين الى صوم يوم حداداً عَلَى الالوف الذين ماتوا من اخوانهم ، وليذوقوا متى صاموا طعم الجوع ولو قليلاً فيشاركوا فيه بعض المشاركة اخوانهم الجائعين الباقين في قيد الحياة . وتقرر ان يكون ذلك نهار الجمعة السابق يومي الاعانة المعينين من قبل الرئيس

فصام كثيرون من السوريين في هذا اليوم . وكرّسوه للتأمل بحالة وطنهم البائس . وقدموا ما توفر لديهم من المصاريف في ذلك النهار الى اللجنة السورية تزكية عن نفوسهم فكان لعملهم صدى بليغ وتأثير عميق في قلوب الناس ، ولا سيما الاجانب

﴿ يوما الاعانة ﴾

ولما جاء يوما الاعانة المخصصان من قبل الرئيس خرج السوريون والارمن رجالاً ونساء من قبل لجانهم يستندون أكف المحسنين عَلَى زوايا الشوارع وفي محطات القطارات واماكن العمل فجمعوا مقداراً كبيراً من المال يشهد بسخاء الاميركيين وحنانهم . وقد أظهرت السيدات السوريات في مدينة نيويورك وسواها غيرة شديدة وتضحية واقداماً في هذين اليومين

اذ برزن من خدورهن وخرجن يجمعن الحسنات في الشوارع والمخازن ومكاتب التجار غير مباليات بما يعترضهن من تعب وتثبيط عزائم . فسالت اقلام الكتاب تخط لهن الثناء وفاضت قرائح الشعراء اعترافاً لهن بالجميل فقال ايليا ابوماضي —

لله ، ما أحلى ، وما اجملا ... ان تنصر المسكين ذات الحلى
ان التي تقتل اجفانها ... أبت عَلَى البائس أن يُقتلا
فاقبلت تبذل أموالها ... وتسأل المثري ان يبذلا
في الله مسعاها واحسانها ... فهكذا الغيد والا فلا

وقال رشيد أيوب

غداً تُشرق الشمس فوق الربوع ... وتجتاز ارض البكا والعويل
وتخبر كيف بلاد الدموع ... تحيي اللواتي صنعن الجميل
هناك بعيداً وراء البحور ... عيونٌ تشقُّ اديم الاثير
وترنو الى صاحبات الشعور ... بحزنٍ مذيبٍ وقلبٍ كسير
هنالك في الشرق حيث الرواح ... وحيث النهار كليلٍ بهيم
سيظهر لطفٌ كشمس الصباح ... وعطفٌ يسابق جريَ النسيم
هناك ستزهو بعيد الذبول ... نفوسٌ تجنّي عليها الزمان
وتنبت ما بين تلك الطلول ... زهورٌ غرسنَ بايدي الحنان
فيا ريحُ ان جئتِ ارض الشآم ... وعجت بلبنان وقت السحر
فقولي سلامٌ والف سلام ... عَلَى من تواروا بتلك الحفر

ملائك الرحمة والحنان

وقال فريد غصن ..

من اجل سوريا الشقية اسرعت
تبغي التسوّل بكرةً واصيلا
ومشت في الشمسِ المثيرة في الضحى
للخير انّ الخيرَ كان دليلا
هي غادة زان الوفآء جمالها
لا تبتغي من فعلها التبجيلا
لم تنسَ في ارض المهاجر موطناً
عبث الزمانُ به فصار ذليلا
قالت لاهلِ الغربِ ان بلادنا
امست بها الدورُ الحسانُ طلولا
فاعطوا بلادي الخبزَ كي تحيا به
فهي التي اعطتكمُ الانجيلا

﴿ نجاح اللجان ﴾

أكدالعارفون ان سعي اللجان السورية في مصر واميركا سيسفر عن جمع مبلغ لا يقل عن نصف مليون دولار . وما أقل هذه القيمة امام عظمة النكبة ! اما اللجنة الاميركية فقد تجمع بضعة ملايين ، ولكنها ستخص ارمينيا بقسم كبير منها . وهي الان مهتمة ببسط يد حنانها سريعاً لتدرك سوريا قبل ان يهبط الشتآء فيزيد بويلاته بؤس المنكوبين ، وآخذة في تجهيز باخرة

مملوءة بالاقوات والثياب لتسير الى بيروت فتصل قبيل عيد الميلاد وهنالك يتعاون الصليب والهلال الاحمران عَلَى توزيع ما فيها وتخفيف وطأة الويل عن الالوف ·

﴿ من حمى الرغد الى مملكة الامى ﴾

بينا العناصر المتطاحنة والجبابرة المتعاركة تدك معاقل المدنية وتهدم صروح الانسانية نرى يد الرحمة تمتد من وراء البحار لتواسي الحزين وتخفف عن المدنف وتشبع الجائع وتريح العاجز وتكسو العاري · فدعوا السياسة واطماعها والحرب ووقائعها وهلموا بنا نصغي الى انين البائسين وصراخ المنكوبين · وتعالوا ننضم الى جيش الرحمة لننقذ بقية امتنا · نحن لا نستطيع ان نعيد القتلى الى الحياة ولا ان نعوض ارواح الهالكين في النكبة ، ولكنا نستطيع ان نوقف تيار البؤس — نستطيع ان نكسو العاري ونطعم الجائع ونداوي المريض ·

فالى الاعانة ، يا اهل المروءة ! أسرعوا قبل ان يفوت الاجل ويصبح شعبنا رفات بالية ، فتنظر الينا الشعوب باستهزاء قائلة — « هوذا بقايا قوم هلكت أمتهم لانهم لم يمدوا اليها يد الاسعاف » ان الجوع والوباء والخوف تحصد قومكم وانتم آمنون · ان الوفاً من الايدي الضئيلة تمتد اليكم متضرعة مستعطية · ومن منكم اذا سأله ابنه خبزاً يعطيه حجراً ؟

وقاكم الله من أن تذوقوا طعم الجوع المدقع · فقد قال ماثيو ارنولد — « ان الذين يهلكون بالجوع يموتون قيراطاً فقيراطاً »